812-04-29041,3
FREIE UNIVERSITÄT
BERLIN
Institut für Islamwissenschaft

مفكرة

عندما يختلط الماء .. بالدم!

(١)

اذتم لا تعرفون بدر قدورة ، الصبية الصغيرة ، التي ما زالت مزروعة في « تل الزعتر » ، عيون « بدر » خضراء ، جمعت كل خضرة الحرش الصنوبري القابع وراء المخيم ، وشعرها الخروبي المنسدل على كتفيها ، والذي ما زال غائصا في تربة المخيم . تقول الحكاية ان بدر ابنة الخمسة عشر عام ، وذات القامة الممتدة امتداد بنادق ١٩٣٦ ، ظلت تقاتل اثناء الحصار ، في الليل والنهار ، وانهم حين احتلوا « تلة المير » كانت واحدة من المقاتلات والمقاتلين الذين اندفعوا ولم يتوقفوا الا على قمة « تلة المير » .

لكن الرفيقة بدر ، بعينيها الخضراوين ، وشعرها الخروبي ، ظلت على « قمة تلة المير » حتى الان ، واختلطت الجديلتان الخروبيتان بتراب « التل الاحمر » في عناق ابدي .

(٢)

ما الذي يجعل صورة هذين الاثنين ابدا حاضرة في ذهني ؟
ما الذي يضغط على الاعصاب والقلب حين يحضران ؟
حتى الان ما زال العقل والقلب يتحاوران .

ابو حسين ... وابو مرعي ، عمر كل منهما حوالي الـ ٦٠ عاما ، منذ ان وطأت اقدام الثورة المخيمات ، اندفع لهبها الى كل فعل من افعالهم ، مرة في الرشيدية عام ١٩٦٩ ، حيث تم الاعداد لعملية نوعية في داخل الارض .

ـ هل تذهب يا ابو حسين ؟؟
ـ وهل هذه القضية بحاجة الى سؤال ؟
ـ وزوجاتك ... وابناؤك ؟
ـ ولا يهمك .

كانت العملية رائعة .

هذه الخيوط الدقيقة المرهفة التي تربط ابو حسين بالشباب والاشبال .

ـ اين انت يا ابو حسين الان ؟

اذكر طعم قهوتك في اخر زيارة للمعسكر ... وابتسامتك التي تحمل اكثر من سؤال ، و « تنقيراتك » التي تتيح للشباب حق الكلام .

اخبروني انك رفضت انت الاخر الاستسلام ، وبقيت مزروعا قرب المستوصف .

ابو مرعي !؟

يصعب ان تنسى رفيقا مثل ابو مرعي حمل بايمانه العميق بالثورة ، واقام في احدى القواعد الريفية عام ١٩٧٠ وكان اول من يستيقظ ، واخر من ينام .

تذكر معي ... مرة نمت واياكم في القاعدة ... وسألتك : الا تنام ؟ صمت ... لا تعرف الكلام عن بطولاتك تصمت ، فيك خجل وحياء ويعني رائع ، ما احسن الصامتين في زمن الثرثرة ، والغرور .

في معسكرنا ، في تل الزعتر ، ابو مرعي موجود دائما ، اذا جرى اتصال تليفوني ، فهو الذي يجيبك صباحا مساء ، وان اجري اتصال لاسلكي ، فهو كذلك . واخيرا فأبو مرعي ظل موجودا في الزعتر حتى الان ...

هل عرفتم الان ... ايها الرفاق ... اي عذاب ، ينتاب الانسان حين يذكر « ابو حسين » و « ابو مرعي » الذين يجيدون العمل اكثر من اللفظ الفارغ !؟

(٣)

ـ ابو عفيف ، !؟

كان سابقا ، ومقاتلا ، وطيبا ، ومخلصا وقائدا لمجموعة قتالية في معارك « حرش ثابت » .

ـ كيف استطعت ان تنجو يا ابو عفيف ، وقد استشهد اثنان من رفاقك ، وجرح الاخران ، وبقيت انت !؟

ابو عفيف لا يعرف كيف يقدم تقريره ، بصمت ، تلعب في عينيه آلاف القصص ، ويقف بقامته القصيرة ، عملاقا امامك .

يقول لك الاخرون السر : اندفعت المجموعة ، قاتلت بشجاعة ، حددت البناية المحددة لها ، وتمركزت في بناية سي . تي . آي ، وقعت خسائر كبيرة في صفوف الفاشيين .

ثم جاء الانسحاب ، هذه الكلمة التي يحمل كل حرف من حروفها لسعة من لسعات العذاب ، بقي ابو عفيف ، حوصرت المجموعة ، قاتلت بضراوة ، استشهد اثنان ، وجرح اثنان ، ظل ابو عفيف يقاتل ، نقل اول الجرحى الى « تل الزعتر » وعاد ينقل الجريح الاخر ، ويقاتل ، وحين سالناه ، ماذا حصل ؟ صمت ابو عفيف ... اسوأ ما فيك انك لا تعرف كتابة التقارير ، ولا تحسن الحديث عن بطولاتك .

وجاء الحصار ، وابو عفيف دوما في المقدمة ، اولادك العشرة !؟ ابو عفيف لا يسمع انتبه لنفسك ، لكنه يتقن تقديم نفسه من اجل الاخرين .

وفي اثناء تطهير ـ دير الراعي الصالح ـ من الفاشيين ، سقط « ابو عفيف » في المقدمة ... وكالعادة .

(٤)

... لم يبق الا مصدر وحيد للماء ، في المخيم ، كان ذاك في مصنع البلاط ، والمسيطر عليه بالنيران من الفاشيين ، واروع الامور ان شعبنا اتصف بالهدوء والانضباط وهو ينتزع نقطة الماء من تحت طلقات الرشاشات .

اما « سهيلة » ابنة القائد ابو امل ، والذي كان قد اصيب في المرة الاولى ، فقد اخذت حصتها ، بعد ان انهت دوامها الليلي في المستوصف ، وعادت .

في ذلك الخط الممتد بين التنكية والبئر كانت بندقية القناص الفاشي الجاثم على تلة مقابل المخيم قد قتلت الكثيرين من ابناء شعبنا ، والتقط منظاره صبية في عمر الورود ، ذات شعر اسود فاحم ، وعينان عسليتان لم تناما ، ومشية بطيئة هادئة ... وفجأة اصابت الطلقة تنكة الماء ، فاندفع يمتزج بالدم المنبعث من الطلقة الاخرى .

وهكذا اختلط الماء بالدم بجسد الصبية ذات الستة عشر عاما .

أبو خالد